مجلة الدراسات الفلسطينية، المجلد 13، العدد 51 (صيف 2002)، ص 124

ملف القدس

تواصل "مجلة الدراسات الفلسطينية"، في هذا العدد، ما كانت بدأته في عددها الماضي (50) من نشر مختارات من شقيقتها ***Jerusalem Quarterly File*** (ملف القدس)، التي تصدر بالإنكليزية عن مؤسسة الدراسات المقدسية في القدس المحتلة. وهي فصلية تعنى حصراً بشؤون القدس، وتحفل بمعلومات وتحليلات قيّمة عن المدينة المقدسة في ماضيها وحاضرها، وعن الصراع الدائر بشأن مستقبلها. وقد صدر منها حتى الآن 15 عدداً. أمّا هيئة تحريرها فتتألف من: سليم تماري (رئيس التحرير)؛ عصام نصّار (رئيس التحرير المشارك)؛ إليزابث پرايس (مديرة التحرير)؛ آدم أبو شرار (مدير التحرير)؛ پِني جونسون (مستشار التحرير). كما أن للمجلة مجلساً استشارياً يتألف من عدد من الشخصيات المعنية بالشأن الفلسطيني.■

فلسطيني في الصرح التذكاري للهولوكوست في القدس الغربية*

غسان ف. عبدالله**

لقد كانت ولا شك تجربة مثيرة. لزمني الكثير لحمل نفسي، أنا الفلسطيني، على القيام بالزيارة***. ولم أقم بها إلاّ بعد نقاش مكثّف مع أحد معارفي الألمان بشأن الصلة المثلَّثة بين ألمانيا واليهود والفلسطينيين. وقد كان التأثير فيّ عظيماً من عدة نواح. بل إنني كررت الزيارة**** كي أترك الانطباعات الأولى تغوص عميقاً في النفس، ويظهر المزيد من ردات الفعل لديّ.

توجهت إلى الصرح التذكاري للهولوكوست، "ياد وَشيم"، في القدس الغربية وأنا أحمل القناعات المعتادة لعربي فلسطيني: لم نكن مسؤولين عن المذابح والتمييز ضد اليهود في أوروبا، لا في الماضي ولا في الحقبة النازية، فلماذا يدفع الفلسطينيون ثمن الجرائم التي ارتكبها الأوروبيون بحق اليهود؟ لقد عاش اليهود، تاريخياً، في البلاد العربية والإسلامية بسلام مع الآخرين بصورة عامة، ولم يعانوا عادة إلاّ ما عاناه باقي السكان. العرب هم أنفسهم شعب سامي طبعاً، ومن السخف الحديث عن معاداة العرب للسامية. وما يقف الفلسطينيون والعرب ضده هو الصهيونية السياسية، وغزوها لأرضنا التاريخية وثقافتنا باستخدام خرافات وذرائع مزيفة.

كان اللافت للنظر في البداية كثرة أعداد حافلات السياح وطلاب المدارس قرب مدخل "ياد وَشيم"، فضلاً عن السيارات الخاصة ومركبات النقل العام في مواقف السيارات والشوارع المحيطة. وقد قيل لي إن لكل طالب وجندي إسرائيلي موعداً محدداً لزيارة الصرح التذكاري مرة على الأقل. كما أن الزيارة تدخل في برامج كثير من الوكالات السياحية المحلية، ولا بد منها للشخصيات الرسمية الأجنبية الزائرة.

المكان، بمواقعه الكثيرة، شديد الرهبة بوسائله البصرية ومنشآته المعمارية. وأذكر، بصورة خاصة، أن تصميم الصرح التذكاري الخاص بالأطفال وتأثيره كانا مثيرين للمشاعر، وأن "وادي المجتمعات" (Valley of Communities) كان مذهلاً. والمتحف التاريخي ذو تأثير ملحوظ في نقل الرسالة بطريقة لا تحتاج إلى اللجوء إلى لغة مبالغ فيها. فالتمثيل مدهش، ويفي بالغرض المطلوب. ومن الانفعالات الفورية أن الفلسطينيين يستطيعون أن يتعلموا من هذا الصرح كيف يكرِّمون شهداءهم وتاريخهم.

ونظراً إلى ملايين الكلمات المعبّرة عن ردات الفعل على الهولوكوست من كل الذين

---

* **المصدر:** *Jerusalem Quarterly File*, no. 15 (Winter 2002).

** خبير أنظمة معلومات، مقيم برام الله.

*** حدثت الزيارة سنة 1999.

**** سنة 2000.

زاروا "ياد وَشيم"، فإني لا أدري إن كنت أستطيع الإتيان بطرق مبتكرة للتعبير عن الرعب والاشمئزاز مما حدث في إبان الحكم النازي. ويستطيع اللاجئ الفلسطيني أن يتصوّر على وجه الخصوص الأبعاد اللانهائية لمعاناة الضحايا والناجين. والناجون خاصة يحسدون الأموات أحياناً، بعد رحيل الأحبة وفقد البيوت والأملاك العزيزة، وتمزق المجتمعات والعلاقات شر تمزُّق.

لكن لا يسعني إلاّ أن أنظر بعيني فلسطيني وقلبه. ولا يمكن أن تكون انفعالاتي معزولة عن التاريخ الحديث لبلدنا الذي تم غزوه واحتلاله بالقوة والمال والحيلة والتحالفات مع الأقوياء في ذلك الوقت. باختصار: لقد سُرقت فلسطين، كما يقول الفلسطينيون، من مواطنيها الأصليين المتحدرين ممن سكنوا هذه الأرض. ولم تكتف "إسرائيل" بالاستيلاء على جغرافية فلسطين وادعائها لنفسها فحسب، بل استولت أيضاً على تاريخها ولغتها وأساطيرها وثقافتها، وحتى على الفلافل والحمّص.

استُخدمت الهولوكوست بصورة رئيسية فيما يتعلق بنا، نحن الفلسطينيين، لتبرير الاحتلال الاستيطاني لبلدنا أمام العالم واليهود أنفسهم في كل مكان. وقد كشف كثيرون من الكتّاب، بمن فيهم بعض الإسرائيليين واليهود في أماكن أُخرى، هذا التلاعب بمعاناة اليهود. في المتحف التاريخي، استحوذت الكارثة على المشاعر، وكان من المؤلم رؤية ما يمكن أن تجر الأيديولوجيا المتعصبة البشرية إلى فعله. ومع ذلك، كان الهدف السياسي للمتحف واضحاً جداً من اللوحة الافتتاحية عند المدخل: كل ما حدث لليهود حدث لأنهم كانوا "محرومين من الدولة".

تابعتُ الصور الشنيعة لبروز النازية، وتنامي معاداة اليهود، ومعاملتهم وصولاً إلى معسكرات الموت، لكن انكسر فيّ شيء عندما رأيت صورة وتعليقاً محدداً: صورة الحاج أمين الحسيني يصافح غوبلز أطاحت كثيراً من مسلسل التعاطف الوجداني. لقد بدت لقطة رخيصة جداً، بعد وطأة سلسلة المآسي السابقة للإبادة النازية للمجتمعات اليهودية في أوروبا، هدفها ربط الكفاح الفلسطيني ضد الغزاة الأجانب بما مثّله النازيون وعملوه ضد اليهود! لقد مارس الحاج أمين الحسيني، الذي ينتقده بشدة معظم المؤرخين الفلسطينيين، السياسة القديمة جداً "عدو عدوّي صديقي"، قبل أن يتضح النطاق الكامل لما حدث في الهولوكوست. وعندما كان يستخدم عبارة "الجهاد ضد اليهود"، فإنه كان يمارس أسلوب الحديث المعتاد لخلفيته الإسلامية في ذلك الوقت، قبل أن يصبح اليهود إسرائيليين. كما أن عبارة الحاج أمين الحسيني المقتبسة من رسالة موجهة إلى ريبنتروب: "لمنع اتفاق بين بريطانيا والولايات المتحدة يسمح لليهود بالذهاب إلى ‹أرض إسرائيل›"، يمكن قراءتها بشكل مختلف: "لمنع المستعمرين الصهيونيين الأجانب من الاستيلاء على بلده فلسطين." وما عَرْض هذا النص خارج سياقه، وكأنه استمرار للأعمال النازية، إلاّ تزوير للتاريخ وخداع للنفس.

خلال الجولة في المعرض، كان في وسعي أيضاً أن أرى الكارثة الفلسطينية التي كانت على وشك الحلول بالفلسطينيين، أو النكبة، في سياق تكونها. وفي الجولة الثانية بصورة خاصة، انتابني إحساس غريب بأنني شاهدت هذا كله من قبل. وربما نجم هذا الإحساس عن ملاحظة بعض التشابهات مراراً وتكراراً بين ما يُعرض في "ياد وَشيم" وبين ما حدث للفلسطينيين على أيدي الصهيونيين أو الإسرائيليين في الأعوام التالية، وما زال يحدث.

بدت الأساليب التي استخدمها الصهيونيون ضد الفلسطينيين ماثلة كلها هناك. تجريد العدو، وخصوصاً الضحية، من الصفات الإنسانية – ضَعْ كلمة "عربي" في إسرائيل محل كلمة "يهودي" في ألمانيا. "اليهود"، الممنوعون من دخول بعض الأماكن – ضَعْ بدلاً منها "الفلسطينيين" الممنوعين من دخول أراضيهم. التصنيف العرقي النازي ووسم الضحايا بـ "اليهود" والنجمة الصفراء – ضَعْ مكانها بطاقة الهوية البرتقالية والأذونات الصارمة ولوحات السيارات الخاصة، بل حتى بطاقات الشخصيات المهمة (VIP)، وتقسيم الفلسطينيين إلى دروز ومسلمين وبدو ومسيحيين ومقتلعين وغير معترف بهم ونازحي 1967 والمقدسيين والعائدين واللاجئين، إلخ.

وذكَّرتني "الهجرة غير الشرعية" إلى "أرض إسرائيل" باللاجئين الفلسطينيين الذين كانوا يحاولون التسلل "بشكل غير قانوني" للعودة إلى ديارهم وأراضيهم بعد فترة 1948 – 1949. وتتتالى اللائحة: مكان السلك الشائك لغيتو وارسو ضَعْ السلك الشائك المحيط بغزة وبوابة العبور الفلسطينية عند معبر المنطار. ومكان محاولات اليهود الهرب من معسكرات الاعتقال عبر الأنفاق، تَذكَّر محاولات الفلسطينيين واللبنانيين الهرب من السجون والحدود ومراكز التوقيف التي أقامها الإسرائيليون.

كيف تُفسِّر نقْش المجتمعات اليهودية في الصخر الصَّلد في "وادي المجتمعات اليهودية" لتخليدها، في حين تُدمِّر المجتمعات الفلسطينية وتُسوِّي أكثر من 400 قرية من قراهم بالأرض؟ بل إن التمرّد في غيتو وارسو أثار ذكريات وضع اللاجئين الفلسطينيين في تل الزعتر وصبرا وشاتيلا ومخيمات لبنان الأُخرى، وكلها نجمت في النهاية عن تجريدهم من أملاكهم على أيدي "اليهود".

وعلى غرار ما حدث في محاكمات النازيين في نورنبرغ، ينكر أريئيل شارون أنه شخصياً أراق "دماء الفلسطينيين" بيديه. وغالباً ما يُستخدم تعبير "الحل النهائي" لحل المشكلة مع الفلسطينيين، فضلاً عن صرخة الكراهية: "الموت للعرب" التي كثيراً ما تُسمع في تجمهرات الإسرائيليين، إضافة إلى الدعوات إلى ترحيل الفلسطينيين عن وطنهم. وعلى غرار منكري الهولوكوست، لا نزال نجد منكرين للنكبة بين معظم اليهود والإسرائيليين. ويتذكر المرء كيف تكلم مانديلا على استخدام الفصل العنصري لإعطاء البيض إحساساً كاذباً بالتفوّق لتبرير أعمالهم اللاإنسانية.

لقد حدث غش غريب في فلسطين. إنْ كان غيتو وارسو أصبح الآن ذكرى، فإن المستعمرات الإسرائيلية الشبيهة بالغيتو في الضفة الغربية وقطاع غزة هي شواهد حية أنشأها اليهود أنفسهم بأسلاكهم الشائكة وأبراج المراقبة والمصابيح الكاشفة والحراس المسلحين والكلاب. وكثيراً ما يتساءل المرء: ما هي نوعية الحياة والمستقبل الذي ينتظر الأطفال اليهود في هذه المستوطنات الاستعمارية، بالمقارنة على سبيل المثال بحياة الأطفال المسترخين في البلدات والقرى الفلسطينية المحيطة بهم؟

إن طريقة تكريم اليهود لموتاهم في "ياد وَشيم" يمكن أن تكون درساً للفلسطينيين لإنشاء نصب تذكارية خاصة بهم. لكن عندما يعمد الفلسطينيون إلى إنشاء نصبهم التذكارية، آمل بأن تكون مختلفة في ناحيتين على الأقل: عدم استخدام معاناة الناس لاستدرار الدعم المادي والسياسي، وعدم إثارة مزيد من الكراهية للآخرين.

السلام الحقيقي والدائم بين إسرائيل والفلسطينيين لن تتعمق جذوره عن طريق تزوير التاريخ، وعلى الإسرائيليين واليهود في كل مكان أن يخضعوا لعملية إعادة تربية جدية فيما يتعلق بما فعلوه بالفلسطينيين، وعليهم أن يتعلموا الحقائق ويعرفوا مسؤوليتهم. وبغض النظر عن التسويات التي قد يتفق عليها الزعماء من كلا الجانبين، لا يستطيع الفلسطينيون أن يغفروا من دون اعتراف الإسرائيليين بما فعلوه بهم. ولعل هناك دوراً تاريخياً للفلسطينيين يتمثل في مساعدة الإسرائيليين الصهيونيين واليهود في كل مكان على التخلص من مواقفهم العرقية الراسخة والمعادية للآخرين. فإسرائيل لن تصبح البتة دولة عادية يقبل بها العالم بأسره من دون غفران الفلسطينيين، مثلما فعل اليهود بالنسبة إلى ألمانيا.■

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
http://www.palestine-studies.org/ar/mdf